

تعدد الدلالة الاصطلاحية للصفة:

د. يوسف فجاج

تعدد الدلالة الاصطلاحية للصفة:

دراسة في التداخل المفهومي عند سيبيوه

د. يوسف فجاج

fjjaj100@gmail.com

المملكة المغربية

الملخص:

تتناول هذه الدراسة ظاهرة التداخل المفهومي للمصطلح الواحد عند النحاة الأولين، وخاصة سيبيوه. وتسعى إلى الكشف عن الطبقات الدلالية المتعددة التي ينطوي عليها مصطلح الصفة، والتي تجعله مفهوماً إشكالياً مُركباً يتجاوز حدوده الاصطلاحية الضيقة المعروفة. وقد تتبعت الدراسة مواضع ورود المصطلح بأشكاله الاسمية والفعلية المختلفة في الكتاب، إذ رصدت نحو ألف موضع تتوزع على مئات الأبواب النحوية والصرفية. وتبين من خلال الإحصاء والتحليل أن المصطلح يتضمن سبعة معانٍ متداخلة ومتفاوتة، هي: النعت، والمشتقات الصرفية الخمس، والحال والتمييز، والتوكيد بنوعيه اللفظي والمعنوي، والبدل، والمستثنى، فضلاً عن الجملة الفعلية. كما تبين أن التمييز بين الصفة والنعت والوصف ظلّ مُلتبساً حتى عند النحاة الذين جاؤوا بعد سيبيوه، وهو ما يُفضي إلى إعاقة الامتداد الاصطلاحي بين الدراسات اللغوية القديمة والحديثة.

الكلمات المفتاحية: الصفة، النعت، المصطلح النحوي، سيبيوه، التداخل المفهومي، الدلالة الاصطلاحية

مقدمة:

لقد كان البحث في المصطلح -ولا يزال- ركيزة أساسية لفهم العلوم وتنظيمها وتسهيل التواصل بين المتخصصين، وتيسير التعلم على المبتدئين. ولهذا كان من شروط المصطلح أن يدلّ على المفهوم بدقة وألا تتعدّد معانيه التي يُحيل عليها داخل العلم الواحد. إلّا أننا نفتقد هذا الشرط في بعض الأحيان، خاصة في كتب النحاة الأولين مثل سيبويه. وقد دأب النحاة قبله وبعده على تقسيم الكلم إلى ثلاثة أقسام لا رابع لها: الاسم والصفة والفعل. إلّا أنه بالبحث والتمحيص والتتبع يتبيّن أن هذه القسمة قابلة لإعادة النظر أو على الأقل لمزيد من التفصيل والتوضيح، خاصة فيما يتعلق بمصطلح الصفة، والذي يشكّل عائقاً أمام الدراسات الحديثة لما له من سمات قد تجعله يستقلّ بنفسه. وهو ما فعلته الدراسات اللسانية الأوربية التي أخرجت قسم الصفة من عباءة الاسم. كما سارع بعض المحدثين العرب إلى المناداة بإعادة النظر في هذه القسمة الثلاثية ومنهم تَمّام حسان ومهدي المخزومي وغيرهم. لكن ينبغي قبل ذلك القيام بدراسة معمقة للصفة كمصطلح وللمفاهيم التي تتداخل معها انطلاقاً من كتب النحويين الأولين وفي مقدمتهم سيبويه، وهو ما ترومه ورقات هذا البحث.

المبحث الأول: الصفة في اللغة والاصطلاح

1- الدلالة المعجمية للفظ الصفة

الصفة في اللغة اسم مشتق من الوصف. والهاء عوض عن الواو.¹ فالصفة اسم لما يوصف به الشيء. والوصف مصدر، أي هو فعل الوصف. يقول صاحب العين (ت170هـ): «الوصف: وصْفُ الشيءِ بجلّيته ونَعْتِهِ. ويقال للمُهر إذا تَوَجَّه لشيءٍ من حُسْنِ السَّيْرَةِ: قد وَصَفَ، معناه: أنّه قد وَصَفَ المَشْيَ أي وَصَفَهُ لِمَنْ يُريد منه.»²

وجاء في الصحاح (ت393هـ): «وصفت الشيء وصفاً وصفةً، وتواصفوا الشيء من الوصف. واتصف الشيء، أي صار مُتَوَاصِفاً. والصفة كالعِلْمِ والسَّوَادِ.»³

ويقول ابن فارس (ت395هـ) في مادة [وَصَفَ]: «الْوَاوُ وَالصَّادُ وَالْفَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ، هُوَ تَحْلِيَةُ الشَّيْءِ. وَوَصَفْتُهُ أَصِفُهُ وَصَفًا. وَالصِّفَةُ: الْأَمَارَةُ اللَّازِمَةُ لِلشَّيْءِ، كَمَا يُقَالُ وَرَنْتُهُ وَرَنًا، وَالرِّنَةُ: قَدْرُ الشَّيْءِ. يُقَالُ اتَّصَفَ الشَّيْءُ فِي عَيْنِ النَّاطِرِ: احْتَمَلَ أَنْ يُوصَفَ.»⁴

وفي لسان العرب لابن منظور (ت711هـ): «وَصَفَ الشَّيْءَ لَهُ وَعَلَيْهِ وَصَفًا وَصِفَةً: حَلَّاهُ، وَالْهَاءُ عَوَاضٌ مِنَ الْوَاوِ، وَقِيلَ: الْوَصْفُ الْمَصْدَرُ وَالصِّفَةُ الْحَلِيَّةُ... وَالصِّفَةُ: كَالْعِلْمِ وَالسَّوَادِ.»⁵

فالصفة إذن ترجع في معناها اللغوي إلى ثلاثة معان:

¹ الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ-1987م. ج4، ص1438

² الخليل، الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د ط، د ت. ج7، ص162

³ الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مرجع سابق، ج4، ص1438

⁴ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، د ط، 1399هـ -

1979م. ج6، ص115

⁵ ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج9، ص356

1- الحلية¹ والنعته.

2-الإظهار والبيان.²

3-الأمانة اللازمة للشيء. (وهو تفسير بالغالب، لأن الصفة لا تكون لازمة على كل حال)

وخلاصة القول في تعريف الصفة اللغوي أنها: كل ما يُنسب إلى الشيء من خصائص وأمارات تميّزه وتعرّفه.

2-بين الصفة والنعته

لقد ارتبط التعريف اللغوي للصفة بلفظ "النعته" حيث جاء كل منهما مرادفاً للآخر في معاجم اللغة. فما هو النعته إذن؟ وهل يطابق الصفة في الدلالة أم بينهما فرق؟

يقول الخليل (ت 170هـ): «التَّعْتُ وَصَفْتُ الشَّيْءَ بِمَا فِيهِ. وَيُقَالُ: التَّعْتُ وَصَفْتُ الشَّيْءَ بِمَا فِيهِ إِلَى الْحَسَنِ مَذْهَبُهُ، إِلَّا أَنْ يَتَكَلَّفَ مُتَكَلِّفٌ، فَيَقُولُ: هَذَا نَعْتُ سَوْءٍ. وَالنَّعْتُ: كُلُّ شَيْءٍ كَانَ بِالْعَا. تَقُولُ: هُوَ نَعْتُ، أَي: جَيِّدٌ بِالْع.»³ وجاء في الصحاح (ت 393 هـ): «النعته: الصفة. وَنَعْتُ الشَّيْءَ وَانْتَعْتَهُ، إِذَا وَصَفْتَهُ.»⁴

وقال ابن فارس (ت 395 هـ): «النُّونُ وَالْعَيْنُ وَالْتَاءُ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ التَّعْتُ، وَهُوَ وَصَفْتُ الشَّيْءَ بِمَا فِيهِ مِنْ حُسْنٍ. إِلَّا أَنْ يَتَكَلَّفَ مُتَكَلِّفٌ فَيَقُولُ: ذَا نَعْتُ سَوْءٍ. وَكُلُّ شَيْءٍ جَيِّدٍ بِالْعِ نَعْتُ.»⁵ وفي لسان العرب: «التَّعْتُ: وَصَفْتُ الشَّيْءَ، تَنْعَتُهُ بِمَا فِيهِ وَتُبَالِغٌ فِي وَصْفِهِ. وَالتَّعْتُ: مَا نُعِتَ بِهِ. نَعْتَهُ يَنْعَتُهُ نَعْتًا: وَصَفَهُ. وَرَجُلٌ نَاعِتٌ مِنْ قَوْمٍ نَعَاتٍ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: أَنْعَتُهَا، إِلَيَّ مِنْ نَعَاتِهَا. وَجَمْعُ التَّعْتِ: نُعُوتٌ. وَالتَّعْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: جَيِّدُهُ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ بِالْعِ نَعْتُ: هَذَا نَعْتُ أَي جَيِّدٌ.»⁶

وقال ابن الأثير (ت 606 هـ): «التَّعْتُ وَصَفْتُ الشَّيْءَ بِمَا فِيهِ مِنْ حُسْنٍ، وَلَا يُقَالُ فِي الْقَبِيحِ إِلَّا أَنْ يَتَكَلَّفَ مُتَكَلِّفٌ، فَيَقُولُ نَعْتُ سَوْءٍ؛ وَالْوَصْفُ يُقَالُ فِي الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ.»⁷

يتبين إذن أن الصفة والنعته في اللغة يدلّان على شيء واحد وهو الحلية التي تنسب إلى الشيء. إلا أن بعض اللغويين خصّوا النعته بالحسن منها⁸ (كما فعل ابن فارس وابن الأثير)، فتكون الصفة بذلك أعمّ من النعته. بينما جعله آخرون مرادفاً ومطابقاً

¹ وهي اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ مُصَاغِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. اللسان 195/14 - وقال ابن الجباز: "التحلية تفعلة من الحلية، وهو الأمر الظاهر على

الموصوف كالطول والقصر والسواد والبياض والعمى والحول والعمور." توجيه المص 258

² ويشهد له حديث أسامة رضي الله عنه قال: كساني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِطِيَّةً كَثِيفَةً مِمَّا أَهْدَاهَا لَهُ دَحِيَّةُ الْكَلْبِيِّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي فَقَالَ: مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسِ الْقَبِطِيَّةَ قَلْتُ: كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي. فَقَالَ: مُرَّهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا. "أي تظهر حجمها ولا تسترها سترًا

تاماً. رواه الإمام أحمد. حديث رقم 21786

³ الخليل، كتاب العين، مرجع سابق، ج 2، ص 72

⁴ الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مرجع سابق، ج 1، ص 269

⁵ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج 5، ص 448

⁶ ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج 2، ص 99

⁷ ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي،

المكتبة العلمية، بيروت، ط 1، 1399 هـ - 1979 م. ج 5، ص 79

⁸ يقول الأصفهاني في المفردات: «وَالْوَصْفُ قَدْ يَكُونُ حَقًّا وَبَاطِلًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾» ص 873

للصفة (كما فعل الجوهرى). وأما الخليل وابن منظور فنقلوا المذهبين معا دون ترجيح لأحدهما على الآخر. ولهذا شاع في الاستعمال عدم التمييز بينهما في الكلام.

3-الدلالة الاصطلاحية للصفة

لقد دأب النحويون في كتبهم على عدم التمييز بين الصفة والنعته والوصف، وعدّوها مصطلحات لشيء واحد. فمنهم من عرّف الصفة بلفظها كالزّمخشري وابن يعيش والرضي في شرح الكافية والجرجاني في شرح الإيضاح، ومنهم من وظّف لفظ النعته بدله وخلطه في التعريف بلفظ الصفة كما فعل ابن السراج وابن الحاجب والكثير من النحويين. ولهذا فإننا سننقل تعاريفهم كما وردت في مظانّها.

يقول ابن السراج (ت316هـ) في باب النعته: «الصفة: كل ما فرّق بين موصوفين مشتركين في اللفظ»¹

ويقول السيرافي (ت368هـ) في شرح الكتاب: «النعته اختصاص نفس المنعوت وإخراج له من إبهام، وعموم إلى ما هو أخص منه»² أما ابن جنّي (ت392هـ) فيقول: «الوصف لفظ يتبع الاسم الموصوف تجليّة له وتخصيصا ممّن له مثل اسمه يذكر معنى في الموصوف أو في شيء من سببه»³

وعرّفها الزّمخشري (ت538هـ) في المفصل بقوله: «الصفة هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات وذلك نحو طويل وقصير وعاقل وأحمق وقائم وقاعد»⁴ ويعلّق شارحه ابن يعيش (ت643هـ) عليه بقوله: «الصفة والنعته واحد، وقد ذهب بعضهم إلى أنّ النعته يكون بالحيّة نحو: "طويل"، و"قصير"، والصفة تكون بالأفعال، نحو: "ضارب" و"خارج". فعلى هذا يقال للبارئ شبحانه: موصوف، ولا يقال له منعوت، وعلى الأول هو موصوف ومنعوت»⁵

من خلال التعاريف السابقة يتأكد ما سبقت الإشارة إليه من عدم التفريق بين الصفة والنعته والوصف، وأن عبارة النعته في تعريف الصفة قد انصبت أكثر على وظائف الصفة أي أغراضها في الكلام وهي التمييز بين المشتركين أو التخصيص والتوضيح، دون التعرّيج على ماهيتها وحقيقتها إلا ما ذكره الزّمخشري من كونها اسما.

فلا شك إذن من أن هذا الاضطراب في مصطلح الصفة يعود إلى الأزمنة الأولى لوضع علم النحو. فما هي الصفة في اصطلاح سيبويه؟ وما علاقتها بباقي المصطلحات التي تتداخل معها؟

المبحث الثاني: الصفة في اصطلاح سيبويه

يعدّ سيبويه و"كتابه" عمدة في النحو العربي، وكل من أتى بعده نحا نحوه. ورغم أن المصطلح النحوي عنده كان في طور النشأة ولم ينضج بعد، إلا أنه يعدّ أساسا ومنطلقا لكل ما جاء بعده من مصطلحات.

1-موارد المصطلح

¹ ابن السراج، أبو بكر، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1417هـ/1996م، 23/2

² السيرافي، أبو سعيد، شرح كتاب سيبويه، تحقيق أحمد حسن مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، 312/2

³ ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، اللمع في العربية، تحقيق سميح أبو مغلّي، دار مجدلاوي، عمان، د ط، 1988م، ص65

⁴ الزّمخشري، أبو القاسم محمود، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق علي بو ملحّم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993م، ص149

⁵ ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ/2001م، 232/2

من أجل الوقوف على الدلالات الاصطلاحية التي تشكل مفهوم الصفة عند سيوييه، لا بد من القيام قبل كل شيء بعملية الإحصاء التام للمواضع التي ورد فيها هذا المصطلح بمختلف أشكاله الاسمية منها والفعلية. وقد مكّنت هذه العملية من إحصاء ما يقارب ألف موضع، تتوزع حسب الجدول التالي:

اللفظ	عدد ورود	نسبة الورود	عدد الأبواب	النسبة إلى مجموع الأبواب ¹
صفة	334	%34	102	%21
الصفة	307	%31	74	%15
الصفات	53	%5	28	%6
صفات	8	%0.8	5	%1
الوصف	48	%5	24	%5
وصف	171	%17	61	%13
الصيغة الفعلية: وصف يصف تُوصف...	76	%8	55	%11
المجموع	997	%100		

2- أشكال ورود

أول ما يثير الانتباه في هذا الجدول هو هذا الكمّ الهائل لموارد المصطلح بمختلف أشكاله، حيث بلغت سبعة وتسعين وتسعمائة أي ما يقارب الألف موضع. وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على أهمية مصطلح الصفة في الدرس النحوي عموماً، وفي كتاب سيوييه على وجه الخصوص.

كما يدلّ حجم ورود أيضاً على علاقات المصطلح المتشعبة مع كثير من المصطلحات والأبواب النحوية والصرفية. وهو ما سيتبين في ثنايا هذا البحث.

أما من حيث الشكل فالملاحظ أن ورود المصطلح بصيغته الاسمية يفوق بكثير صيغته الفعلية. حيث بلغ في الأولى نحو واحد وعشرين وتسعمائة موضعاً، بنسبة 92%، في حين لم تتجاوز في الثانية ستة وسبعين موضعاً، أي بنسبة 8%. وهو ما يؤثّر على هيمنة الصيغة الاسمية للمصطلح، شأنه في ذلك شأن جُلّ المصطلحات في جميع العلوم. إذ أغلبها يوضع اسماً ثم تشتق منه الأفعال عند الاقتضاء، أو عند إرادة التعبير عن الحدث منه في علاقته بشبكة المصطلحات والمفاهيم التي ترتبط به.

واقترنت المشتقات اللفظية للمصطلح على: الاسم "الصفة" والمصدر "الوصف" والفعل الثلاثي "وصف"، ما يدلّ على استقرار المصطلح وقوّته الاصطلاحية في التعبير عن المفهوم.

واستحوذ لفظ الصفة -نكرة ومعرفة- على القسط الأوفر من حجم الورد، حيث بلغ واحداً وأربعين وستمائة موضع بنسبة 64%، في حين لم يأت بلفظ الوصف إلا في تسعة عشر ومائتي موضع، أي بنسبة 21%. وهو الأمر الذي يفسّر انتشار المصطلح بلفظ "الصفة"، خاصة بعد سيوييه.

¹ اعتمد البحث في عدّ أبواب "الكتاب" على طبعة مكتبة الخانجي، بتحقيق عبد السلام هارون.

أما من حيث التعريف والتذكير، فقد جاء مصطلح الصفة منكرًا كما جاء معرفًا بـ "ال"، وذلك بنسب متقاربة (34% نكرة و31% معرفة)، ما يرجح أن لام التعريف هنا تدلّ على الجنس¹ لتفيد الشمول والعموم فتكون بذلك مساوية للنكرة. وما يعضد هذا ورود المصطلح بصيغة الجمع "صفات".

وقد تدلّ اللام على العهد الذكري في كثير من المواضع، خاصة إذا جاءت بعد ذكر الصفة نكرة في نفس الكلام، أو العهد الذهني عندما لا تُسبق بذكر. ومن أمثلة العهد الذكري قول سيبويه:

- «وإِذَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَنْصِبُوا بِالْفِعْلِ اسْمًا إِذَا كَانَ صِفَةً لَهُ أَنَّ الصِّفَةَ تَمَامُ الْاسْمِ، أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الْأَحْمَرِ كَقَوْلِكَ مَرَرْتُ بِزَيْدٍ»²

- وقوله أيضا: «وإِذَا نُصِبَ صِفَةُ الْأَحْيَانِ عَلَى الظَّرْفِ وَلَمْ يَجْزِ الرِّفْعُ لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَقَعُ مَوَاقِعَ الْاسْمِ، كَمَا أَنَّه لَا يَكُونُ إِلَّا حَالًا قَوْلُهُ: أَلَا مَاءٌ وَلَوْ بَارِدًا، لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: وَلَوْ أَتَانِي بَارِدٌ، كَانَ فِيهَا»³

ومن أمثلة العهد الذهني، أي الذي يقصد به الصفة المعروفة بالمعنى الاصطلاحية والمستقرّة في الأذهان، قوله:

- «وتقول: ما كان فيها أحدٌ خيرٌ منك، وما كان أحدٌ مثلك فيها، وليس أحدٌ فيها خيرٌ منك، إذا جعلت فيها مستقرًّا ولم تجعله على قولك فيها زيدٌ قائم، أُجريت الصفة على الاسم»⁴

- وقوله أيضا: «وتقول سير عليه ليلٌ طويلٌ وسير عليه نهارٌ طويل، وإن لم تذكر الصفة وأردت هذا المعنى رفعت، إلا أنّ الصفة تبين بها معنى الرفع وتوضّحه، وإن شئت نصبت على نصب الليل والنهار ورمضان»⁵

أما من حيث عدد الأبواب التي ورد فيها المصطلح، فهي أبواب متنوعة وكثيرة جدًا كما بيّنه الجدول. فقد أنافت على المئة بلفظ "صفة" نكرة، والسبعين بلفظ المعرفة، ولفظ "الوصف" على الستين. ولا يمكن جمعها واستخراج النسبة منها لأنها كثيرا ما ترد مجموعة في الباب الواحد، فإذا جمعت فقد يتجاوز مجموعها عدد أبواب الكتاب أو يقاربه. ومن هذه الأبواب:

- باب مجاري أواخر الكلم من العربية. ويقصد به حركات الإعراب والبناء.

- باب ما يعمّل فيه الفعل فينتصب وهو حالٌ وقع فيه الفعل وليس بمفعول. ويقصد باب الحال والتفريق بينه وبين المفعول الثاني.

- الفعل الذي يتعدّى اسم الفاعل إلى اسم المفعول. ويقصد بالفعل كان وأخواتها، وباسم الفاعل اسمها، وباسم المفعول خبرها.

- باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة

¹ يقسم النحاة لام التعريف إلى ثلاثة أقسام: لام العهد، ولام الجنس، ولام الاستغراق. ينظر كتاب "اللامات" لأبي القاسم الزجاجي (ت 337 هـ) ص 43-44، و"شرح شذور الذهب" لابن هشام الأنصاري (ت 761 هـ)، ص 201-203.

² سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408 هـ - 1988 م، ج 1 ص 88.

³ نفسه ج 1، ص 227.

⁴ نفسه ج 1، ص 55.

⁵ نفسه ج 1، ص 220.

-باب الفاعلَيْن والمفعولَيْن اللذين كلُّ واحد منهما يُفَعَّلُ بفاعله مثل الذي يُفَعَّلُ به. ويقصد به باب التنارع

-باب الصفة المشبَّهة بالفاعل فيما عَمِلَتْ فيه.

-باب ما يَنْتَسِبُ من المصادر لأنَّه عُذِّرَ لوقوع الأمر. ويقصد به المفعول لأجله

-باب ما يَنْتَسِبُ فيه الصفةُ لأنَّه حَالٌ وقع فيه الألفُ واللام. ويقصد به الحال التي تأتي في النادر معرفةً، نحو: ادخلوا الأول فالأول.

هذه فقط نماذج، وغيض من فيض. ويرجع السبب في ذلك إلى عدة أمور، منها:

أن الكلام كَلَّه لا يخلو من إخبار، والإخبار الغالب فيه الوصف، سواء وصف الذوات، أو الأحوال، أو المقادير، أو التأكيد، أو وصف الفعل، أو الفاعل، ونحو ذلك. ولهذا قسم المناطقة الكلام إلى موضوع ومحمول، فالموضوع الذات المراد الإخبار عنها، والمحمول الأوصاف المتغيرة التي تعربها أو تلازمها.

ومنها أيضاً، أن أبواب "الكتاب" ليست أبواباً بالمعنى الاصطلاحي عند العلماء بعده، بل هي إلى المسائل أقرب. ولهذا تجد عدة أبواب -وهي مسائل- قد جُمعت بعد سيبويه في باب واحد.

ومن الأسباب الأساسية أيضاً لورود الصفة في كثير من الأبواب، منهج سيبويه الفريد الذي يعتمد على التقليلات والاحتمالات في الكلام، وما يجوز منه وما لا يجوز، وكيفية إعرابه وتقديره في كل حالة، ولو كان كذا كان كذا، وما إلى ذلك. وهي طريقة لا تكاد تجدها في كتاب غيره. وهي وإن كانت ميزة له، إلا أنها تزيد من تعقيد الكتاب، خاصة إذا أضيفت إلى عدم استقرار المصطلح وتداخله عند سيبويه.

وبانتقالنا إلى الصيغة الفعلية التي وردت في نهاية الجدول، فنلاحظ أنها جاءت قليلة مقارنة مع الصيغ الاسمية. وقد وردت في كتاب سيبويه بمعنيين:

-الأول وهو المعنى الاصطلاحي الذي يرادف النعت. وذلك في مثل قوله: «ويزيد هذا عندك بياناً قوله تعالى جُدُّه: ﴿هَدْيًا

بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾¹ و ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾²، فلو لم يكن هذا في معنى التكرة والتنوين لم توصف به التكرة»³.

-«واعلم أن المعرفة لا توصف إلا بمعرفة، كما أن النكرة لا توصف إلا بنكرة. واعلم أن العَلَمَ الخاص من الأسماء يوصف بثلاثة

أشياء: بالمضاف إلى مثله، وبالألف واللام، وبالأسماء المبهمة»⁴.

-«واعلم أن الشيء يوصف بالشيء الذي هو هو، وهو من اسمه، وذلك قولك: هذا زيدٌ الطويل»⁵.

¹ سورة المائدة: الآية 96.

² سورة الأحقاف: الآية 23.

³ نفسه ج1، ص 166.

⁴ نفسه ج2، ص 6.

⁵ نفسه ج2، ص 121.

أما المعنى الثاني الذي يرد به فعل الوصف فهو "ذكرت لك" أو "بينت لك" وما في معناها. وغالبا ما يأتي بصيغة الخطاب، لأن سيبويه يتوجه فيه إلى القارئ ليشاركه في درسه النحوي. ومن أمثلته قوله:

- «تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر، وذلك قولك: كان زيداً حليماً، وكان حليماً زيداً، لا عليك أقدمت أم أحررت، إلا أنه على ما وصفت لك في قولك: ضرب زيداً عبداً الله».1

- «ومثل ذلك "بناءً حصيناً" و"امرأة حصان"، فزقوا بين البناء والمرأة، فإنما أرادوا أن يُخبروا أنّ البناء مُحَرَّرٌ لمن لجأ إليه، وأن المرأة محرزة لفرجها... وهذا أكثر من أن أصفه لك في كلام العرب».2

ثالثاً- دلالات ورود مصطلح الصفة

لا يساور الناظر في كتاب سيبويه أدنى شك في تنوع الدلالات التي جاء بها مصطلح الصفة، وذلك تبعاً للسياقات والأبواب التي ورد فيها. وقد تم الوقوف على المعاني الآتية:

1- الصفة بمعنى النعت

ترد الصفة بمعناها الاصطلاحية المرادفة للنعت، وهو الأغلب الأعم. وذلك مثل قول سيبويه:

«فإن قلت: اذخلوا، فأمرت فالتصبُّ الوجه، ولا يكون بدلاً؛ لأنك لو قلت: اذخل الأول فالأول أو رجلٌ رجلٌ، لم يجز، ولا يكون صفةً، لأنه ليس معنى الأول فالأول أنك تريد أن تعرفه بشيء تحلّيه به»3 فبقوله صفة هنا ظاهر في أنه يقصد النعت، بل إنه قد فسره بقوله تحلية، والتحلية أو الحلية كما تقد في التعريف اللغوي هي النعت.

«واعلم أن صفات المعرفة تجرى من المعرفة مجرى صفات النكرة من النكرة، وذلك قولك: مررت بأخويك الطويلين؛ فليس في هذا إلا الجر كما ليس في قولك: مررت برجل طويل، إلا الجر. وتقول: مررت بأخويك الطويل والقصير، ومررت بأخويك الراكع والساجد، ففي هذا البديل، وفي هذا الصفة، وفيه الابتداء، كما كان ذلك في مررت برجلين صالح وطالح»4

«واعلم أن المضمّر لا يكون موصوفاً، من قبيل أنك إنما تضمّر حين ترى أن المحدث قد عرف من تعنى، ولكن لها أسماء تُعطف عليها، تعم وتؤكد، وليست صفة؛ لأن الصفة تحلية نحو الطويل، أو قرابة نحو أخيك وصاحبك وما أشبه ذلك، أو نحو الأسماء المبهمة، ولكنها معطوفة على الاسم تجرى مجراه، فلذلك قال النحويون صفة»5

«قلت: رأيت قولهم يا زيد الطويل علام نصبوا الطويل؟ قال: نُصِبَ لأنه صفةٌ لمنسوب. وقال: وإن شئت كان نصبا على أعني. فقلت: رأيت الرفع على أي شيء هو إذا قال يا زيد الطويل؟ قال: هو صفةٌ لرفع».6

1 نفسه ج1، ص47.

2 نفسه ج2، ص102.

3 نفسه ج1، ص398.

4 نفسه ج2، ص8.

5 نفسه ج2، ص11.

6 نفسه ج2، ص183.

وتطلق أيضا على النعت السببي، كقول سيبويه: «باب ما يجري عليه صفة ما كان من سببه وصفة ما التبس به أو بشيء من سببه كمجرى صفته التي خلصت له هذا ما كان من ذلك عملا. وذلك قولك: مررتُ برجلٍ ضاربٍ أبوه رجلا، ومررتُ برجلٍ ملازمٍ أبوه رجلا»¹.

وعلى بعض الأسماء الخاصة التي تعرب نعتا، كـ "مثل وأي وحق وكل"، نحو:

«ومن الصفة: أنت الرجل كلُّ الرجل، ومررت بالرجل كلِّ الرجل. فإن قلت: هذا عبد الله كلُّ الرجل، أو هذا أخوك كلُّ الرجل، فليس في الحُسن كالألف واللام؛ لأنك إنما أردت بهذا الكلام هذا الرجل المبالغ في الكمال، ولم ترد أن تجعل كل الرجل شيئا تعرف به ما قبله وتبينه للمخاطب، كقولك: هذا زيد. فإذا خفت أن يكون لم يُعرف قلت: الطويل، ولكنك بنيت هذا الكلام على شيء قد أثبت معرفته، ثم أخبرت أنه مستكملٌ للخصال. ومثل ذلك قولك: هذا العالم حقُّ العالم وهذا العالم كلُّ العالم، إنما أراد أنه مستحقٌّ للمبالغة في العلم»².

«ومثل ذلك: له صوتٌ أيما صوتٍ، وله صوتٌ مثلُ صوتِ الحمارِ، لأنَّ أيًّا والمثَلُ صفةٌ أبدا. وإذا قُلت: أيما صوتٍ، فكأنَّك قلت: له صوتٌ

حَسَنٌ جدًّا، وهذا صوتٌ شبيهٌ بذلك. فأَيُّ ومِثْلُ هما الأول»³.

2- إطلاق الصفة على المشتقات

ويُقصد بالمشتقات الأسماء التي تعمل عمل الفعل (غير المصدر)، وتسمى أيضا صفات، وهي خمسة اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وصيغة المبالغة واسم التفضيل. وهي تقابل الأسماء الجامدة التي لا تصلح للوصف. وقد فُرق بينهما سيبويه في كتابه في عدَّة أبواب، منها قوله في معرض وجوب القطع وعدم جواز الإتيان على الصفة: «هذا بابُ الرفعِ فيه وجه الكلام، وهو قول العامة»⁴. وذلك قولك: مررتُ بسرجٍ حَزْرٌ صُفْتُهُ، ومررتُ بصحيفةٍ طيرٌ خائِمْهَا، ومررتُ برجلٍ فضَّةٌ حَلِيَّةٌ سَيْفِهِ. وإنما كان الرفع في هذا أحسن من قِبَل أنه ليس بصفة»⁵.

ومن أمثلة تسمية المشتقات الخمسة صفات، قول سيبويه:

-«ومع هذا أنك ترى الصفة تجري في معنى يَفْعَلُ، يعني هذا رجلٌ ضاربٌ زيدا، وتَنْصِبُ كما يَنْصِبُ الفَعْلُ. وسترى ذلك إن شاء الله. فإن كان اسماً كان أخفَّ عليهم، وذلك نحو أَفْكَلٍ وَأَكْلِبٍ، يَنْصَرَفَانِ في النكرة. ومضارعةُ أَفْعَلِ الذي يكون صفةً للاسم أنه يكون وهو اسمٌ صفة»⁶.

-«ومررتُ بهم طُرًّا، " أي جميعاً؛ إلا أنَّ هذا نكرةٌ لا يدخله الألف واللام، كما أنه ليس كلُّ المصادر بمنزلة الجراك، كأنَّه قال: مررتُ بهم جميعاً. فهذا تمثيلٌ وإن لم يُتكلَّم به. فصار طُرًّا " وقاطبة بمنزلة "سُبْحَانَ اللَّهِ" في بابه، لأنَّه لا يَنْصَرَفُ كما أنَّ طُرًّا وقاطبةً

¹ نفسه ج2، ص18.

² نفسه ج2، ص12.

³ نفسه ج1، ص363.

⁴ يقصد عامة النحويين.

⁵ نفسه ج2، ص23.

⁶ نفسه ج1، ص21.

لا يتصرفان، وهما في موضع المصدر، ولا يكونان معرفةً، ولو كانا صفةً لجرّياً على الاسم أو بُيِّيا على الابتداء فلم يوجد ذا في الصفة»¹.

- «باب ما أُجري مجرى المصادر المدعّو بها من الصفات وذلك قولك: هنيئاً مريئاً كأنك قلت: نَبَتَ لك هنيئاً مريئاً، وهنأه ذلك هنيئاً»². قال السيرافي (ت 368 هـ): «وذلك قولك: هنيئاً مريئاً، وليس في الباب غير هذين الحرفين صفة دعا بها، وذلك أنّ هنيئاً مريئاً صفتان، لأنك تقول: هذا شيء هنيء مريء كما تقول: هذا جميل صحيح، وما أشبه ذلك من الصفات على فعيل فدعي بهما للإنسان وليستا بمصدرين، ولا هما من أسماء الجواهر كالتراب والجنادل»³.

- «باب يُختار فيه أن تكون المصادر مبتدأةً مبنياً عليها ما بعدها وما أشبه المصادر من الأسماء والصفات»⁴ فالصفات يقصد بها المشتقات لأنها في مقابل الجامد من الأسماء والمصادر التي تعدّ عند النحاة أسماء جامدة أيضاً، كما سيأتي في شروط الصفة. ومثله قوله أيضاً: «هذا باب ما ينتصب من الأسماء والصفات لأنها أحوالٌ تقع فيها الأمور وذلك قولك: هذا بُسراً أطيبُ منه رطباً»⁵.

ومن تسميته لاسم الفاعل صفة قوله: «وذلك قولك: أخذته بدرهم فصاعداً، وأخذته بدرهم فزائداً. حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إيّاه، ولأنهم آمنوا أن يكونَ على الباء، لو قلت: أخذته بصاعداً كان قبيحاً، لأنه صفة ولا تكون في موضع الاسم، كأنه قال: أخذته بدرهم فزاد الثمنُ صاعداً، أو فذهبَ صاعداً»⁶. وقوله أيضاً: «ومما ينتصب من الصفات حالاً كما انتصب المصدرُ الذي يوضع موضعه ولا يكون إلا حالاً، قوله: أما صديقاً مُصافياً فليس بصديق مُصافٍ، وأما طاهراً فليس بطاهرٍ، وأما علماً فعالمٌ»⁷.

وأما تسمية الصفة المشبهة بالصفة فظاهر، وذلك كقوله: «باب الصفة المشبهة بالفاعل فيما عملت فيه [...] فالمضافُ قولك: هذا حسنٌ الوجه، وهذه حسنةٌ الوجه. فالصفةُ تقعُ على الاسم الأول ثم توصلها إلى الوجه وإلى كلِّ شيء من سببه على ما ذكرت لك»⁸.

ومن إطلاقها على اسم التفضيل قوله: «هذا باب أفعال: اعلم أن أفعال إذا كان صفةً لم ينصرف في معرفة ولا نكرة، وذلك لأنها أشبهت الأفعال نحو: أذهب وأعلم»⁹.

وقوله: «هذا باب ما كان من أفعال صفة في بعض اللغات واسما في أكثر الكلام وذلك: أجدلٌ وأخيلٌ وأفعيٌ. فأجود ذلك أن يكون هذا النحو اسماً، وقد جعله بعضهم صفة؛ وذلك لأن الجدل شدة الخلق، فصار أجدلٌ عندهم بمنزلة شديدٍ. وأما أخيلٌ فجعلوه

¹ نفسه ج1، ص376.

² نفسه ج1، ص316.

³ السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان، شرح كتاب سيبويه، تحقيق أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1429 هـ - 2008 م، ج2، ص208.

⁴ سيبويه، الكتاب، مرجع سابق، ج1، ص328.

⁵ نفسه ج1، ص400.

⁶ نفسه ج1، ص290.

⁷ نفسه ج1، ص387.

⁸ نفسه ج1، ص194-195.

⁹ نفسه ج3، ص193.

أفعل من الخيلان للونه، وهو طائر أخضر، وعلى جناحه لمعة سوداء مخالفة للونه. وعلى هذا المثال جاء أفعى، كأنه صار عندهم صفة وإن لم يكن له فعل ولا مصدر»¹

3- الصفة بمعنى الحال والتمييز

الحال اسم مشتق -في الغالب- يأتي منصوبا للدلالة على الهيئة، وكونه مشتقا أو كما عبّر عنه ابن مالك وصف فضلة منتصب²، هو الذي جعله يتداخل مع الصفة. فهو صفة في المعنى لكنه يلازم النصب، ويدل على حال متغيرة مرتبطة بسياق الكلام.

ومن إطلاق سيبويه للصفة على الحال قوله: «واعلم أن الشيء يوصف بالشيء الذي هو هو، وهو من اسمه، وذلك قولك: هذا زيد الطويل. ويكون هو هو وليس من اسمه كقولك: هذا زيد ذاهبا. ويوصف بالشيء الذي ليس به ولا من اسمه، كقولك: هذا درهم وزنا، لا يكون إلا نصبا»³. وهو الموضع الوحيد الذي وُجد في "الكتاب".

ومثله التمييز فهو أيضا مذكور في هذا النص على أنه يوصف به الشيء وليس من حليته: «ويوصف بالشيء الذي ليس به ولا من اسمه، كقولك: هذا درهم وزنا، لا يكون إلا نصبا»

4- الصفة بمعنى التوكيد

التوكيد «تابع يُقرّر أمر المُتَّبوعِ فِي التَّسْبِبةِ أَوْ التَّشْمُولِ»⁴ وهو نوعان لفظي ومعنوي⁵. وقد أطلق سيبويه على التوكيد المعنوي صفة في عدّة مواضع، منها:

«لَأَنَّكَ إِذَا وَصَفْتَ بِ "نَفْسِكَ" الْمَضْمَرِ الْمَنْصُوبِ بغيرِ أَنْتَ جاز، تقول: رأيتُكَ نفسَكَ»⁶

«وَأَمَّا كُلُّهُمْ وَجَمِيعُهُمْ وَأَجْمَعُونَ وَعَامَّتُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ فَلَا يَكُنُّ أَبداً إِلاَّ صَفَةً»⁷

«وَأَمَّا الْأَجْمَعُونَ فَلَا يَكُونُ فِي الْكَلَامِ إِلاَّ صَفَةً»⁸

كما أطلقها على التوكيد اللفظي، وهو خاص بتأكيد الضمير المستتر بالظاهر. كقوله:

¹ نفسه ج3، ص200.

² ينظر في ذلك: أوضح المسالك في شرح ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري، تحقيق هادي حسن حمودي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1417 هـ - 1996 م، ج2، ص53.

³ سيبويه، الكتاب، ج2، ص121.

⁴ ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد جمال الدين الأنصاري، شرح شذور الذهب، تحقيق يوسف بركات هبود، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1419 هـ - 1998 م، ص445.

⁵ ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش، تحقيق إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1422 هـ - 2001 م، ج2، ص219.

⁶ سيبويه، الكتاب، ج1، ص278.

⁷ نفسه، ج1، ص377.

⁸ نفسه، ج2، ص278.

«فإن قلت: مررت برجل معه امرأة ضاربها، جرّرت ونصبت على ما فسّرت لك. وإن شئت قلت "ضاربها هو" فنصبت، وإن شئت جررت ويكون "هو" وصّف المضمر في ضاربها»¹

وقوله أيضا: «فإن نعتّه حُسن أن يشركه المظهر، وذلك قولك: ذهب أنت وزيد، وقال الله عز وجل: ﴿بِأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾² و ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾³ وذلك أنك لما وصفته حُسن الكلام»⁴

— «باب ما تكون فيه أنت وأنا ونحن وهو وهي وهم وهن وأنتن وهما وأنتم وأنتم وصفا. اعلم أن هذه الحروف كلها تكون وصفاً للمجرور والمرفوع والمنصوب للمضمرين، وذلك قولك: مررت بك أنت، وأنتك أنت، وانطلقت أنت»⁵

5- الصفة بمعنى البدل

البدل هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة، أي على نية إسقاط المبدل منه وتخصيص الكلام بالمبدل.⁶ وقد سمى سيبويه البدل صفة في عدّة مواضع منها قوله:

— «وإن شئت قلت: له صَوْتُ صَوْتِ جِمَارٍ، وله صوتٌ حَوَارِثُ ثَوْرٍ، وذلك إذا جعلته صفةً للصوت ولم ترد فعلاً ولا إضماره»⁷
— «أو ينتصب فيه الخبر لأنه حال لمعروفٍ مبني على مبتدأ فأما الرفع فقولك: هذا الرجل منطلقٌ، فالرجل صفة لهذا، وهما بمنزلة اسم واحد، كأنك قلت: هذا منطلقٌ. قال النابغة:

توهّمْتُ آياتٍ لها فعرفتها لِسْتَةِ أَعْوَامٍ وذا العامِّ سابعٌ⁸

كأنه قال: وهذا سابعٌ»⁹

— «باب لا يكون الوصف المفرد فيه إلا رفعا ولا يقع في موقعه غير المفرد وذلك قولك، يا أيها الرجل، ويا أيها الرجلان، ويا أيها المرأتان. فأبي ههنا فيما زعم الخليل رحمه الله كقولك يا هذا، والرجل وصفٌ له كما يكون وصفا لهذا»¹⁰
فقد جعل سيبويه "الرجل" في قوله: "هذا الرجل منطلق" صفة لاسم الإشارة "هذا" وللمنادى "أي" في "يا أيها الرجل". والنحاة يعربون الاسم الجامد بعدها بدلا.

¹ نفسه، ج 2، ص 52.

² من قوله تعالى حكاية عن قوم موسى: ﴿بِأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ بَقِيَّةً إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 26]

³ في قوله تعالى: ﴿وَيَتَقَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: 18]

⁴ سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 378.

⁵ نفسه ج 2، ص 385.

⁶ السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر، عمان، الطبعة الأولى، 1420هـ-2000م، ج 3، ص 203.

⁷ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 361.

⁸ من الطويل، النابغة، ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1426هـ - 2005م، ص 75.

⁹ نفسه ج 2، ص 86.

¹⁰ نفسه ج 2، ص 188.

6- تسمية المستثنى صفة

الاستثناء هو إخراج الاسم الواقع بعد أداة الاستثناء من حكم ما قبلها. قال العُكْبَرِيُّ (ت616هـ) هو: «إخراج بعضٍ من كلِّ بـ "إلا" أو ما قام مقامها»¹

وقد عدَّ سيبويه المستثنى صفة سواء أكان بـ "إلا" أو "غير" في قوله:

- «باب ما يكون فيه "إلا" وما بعده وصفاً بمنزلة "مثل" و"غير": وذلك قولك: لو كان مَعَنَا رَجُلٌ إِلَّا زَيْدٌ لَعُلِينَا. والدليل على أنه وصف أنك لو قلت: لو كان معنا إلا زَيْدٌ هَلَكْنَا وَأَنْتَ تَرِيدُ الاستثناء لَكُنْتَ قد أَحَلَّتْ. ونظير ذلك قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمْ آلَ اللَّهِ لَآتَيْنَاهُم مِّن سَمَوَاتٍ مُّسْبُحَاتٍ خَضْرَاءٍ حُلَّةٍ وَأَسْمَانٍ كَاللَّيْلِ نَظِيرٍ فَمَا أَصْبَحُوا بِرَبِّهِمْ﴾²

- وقوله: «وإذا قال: ما أتاني أحدٌ إلا زَيْدٌ، فأنت بالخيار إن شئت جعلت "إلا زيد" بدلا، وإن شئت جعلته صفة. ولا يجوز أن تقول: ما أتاني إلا زَيْدٌ وَأَنْتَ تَرِيدُ أن تجعل الكلام بمنزلة مثل، وإنما يجوز ذلك صفة»⁴

- «فإن غير ههنا بمنزلة مثل [...] وعلى ذا أنشد بعض الناس هذا البيت رفعا للفرزدق:

ما بالمدينة دارٌ غيرٌ واحدةٍ ... دارُ الخليفةِ إلا دارُ مروان⁵

جعلوا "غير" صفةً بمنزلة "مثل"»⁶

7- إطلاق الصفة على الفعل

من المعلوم أن من شروط الصفة أن تكون اسما. وقد تأتي جملة فعلية أو اسمية أو شبه جملة. إلا أن سيبويه قد أطلق لفظ الصفة على الفعل في عدّة مواضع من كتابه، ومنها قوله:

- «ولم يسكنوا آخرَ فَعَلٍ لَأَنَّ فيها بعض ما في المضارعة، تقول: هذا رجلٌ ضَرَبْنَا، فتُصَفُّ بها النكرة»⁷

- «وإذا كان الفعلُ في موضعِ الصِّفَةِ فهو كذلك، وذلك قولك: أزيدُ أنتَ رجلٌ تضربه، وأكلٌ يومٌ ثوبٌ تلبسه»⁸

¹ العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق غازي مختار طليمات وعبد الإله نبهان، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1995م، ج1، ص302.

² سورة الأنبياء: آية 22

³ سيبويه، الكتاب، مرجع سابق، ج2، ص331.

⁴ نفسه، ج2، ص334.

⁵ البيت من البسيط، ويُنسب للفرزدق وليس في ديوانه، وهو في كتاب سيبويه، ج2، ص34.

⁶ نفسه، ج2، ص340.

⁷ نفسه، ج1، ص16.

⁸ نفسه ج1، ص128.

-«باب ما يضاف إلى الأفعال من الأسماء: يضاف إليها أسماء الدهر. وذلك قولك: هذا يومٌ يقومُ زيدٌ، وآتيك يومٌ يقولُ ذاك. وقال الله عز وجل: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِفُونَ﴾¹ و﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْبَعُ الصَّالِفِينَ صِدْفُهُمْ﴾². وجاز هذا في الأزمنة واطرد فيها كما جاز للفعل أن يكون صفةً»³

فالفعل الذي يُسميه سيبويه صفة هو الجملة الفعلية عند النحاة، وهي تقع صفة للنكرة.

خاتمة

يتبين مما سبق أن مصطلح "الصفة" في كتاب سيبويه لم يكن مصطلحاً أحادي الدلالة، بل كان حقلاً مفهوماً رحباً يستوعب جملة من الوظائف النحوية المتباينة، التي أثار بعض النحاة المتأخرين أن يُفردوها بمصطلحات مستقلة. وهذا التعدد الدلالي ليس قصوراً في المنهج ولا خللاً في المنظومة المصطلحية، بل هو سمة لازمة لمرحلة التأسيس، إذ لا ينضج أي علم حتى تنضج مصطلحاته.

وقد أسهمت منهجية سيبويه الاستقرائية الدقيقة في توسيع دائرة استعمال المصطلح لتشمل كثيراً من الظواهر النحوية التي تجمعها خاصية الوصفية في المعنى أو الموقع الإعرابي، بصرف النظر عن اختلاف مفهوميها في الجهاز الاصطلاحي المتأخر. ولهذا، فإن قراءة سيبويه قراءةً صحيحة تستدعي الوعي بهذه الدرجات الدلالية المتفاوتة، وعدم إسقاط المصطلحات المتأخرة على نصوصه إسقاطاً اعتباطياً.

وتوصل البحث في ضوء ذلك إلى جملة من النتائج، أبرزها: أن مصطلح الصفة عند سيبويه يُعطي دلاليًا النعت والحال والتمييز والتوكيد والبدل والاستثناء والجملة الوصفية؛ وأن التداخل بين الصفة والنعت ظلّ عائقاً اصطلاحياً لم يُجسّم إلى اليوم؛ وأن الدعوات الحديثة لإعادة النظر في تقسيم الكلم إلى أقسامه الثلاثة تجد جذورها الفعلية في هذه الإشكاليات التأسيسية ذاتها.

ولا شكّ في أن الجهود المبذولة في هذا الميدان ما تزال في حاجة إلى المزيد من الدراسات الاستقرائية الشاملة لكتب النحاة الأولين، حتى يتسنى بناء رؤية مصطلحية تراثية متكاملة قادرة على التواصل مع الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة.

¹ سورة المرسلات: آية 35.

² سورة المائدة: آية 121.

³ سيبويه، الكتاب، ج3، ص117.

المصادر والمراجع:

- ابن الحاجب، عثمان بن عمر، الكافية في علم النحو، تحقيق صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010 م
- ابن الخباز أحمد بن الحسين، توجيه اللمع، تحقيق فايز زكي محمد دياب، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، 1428 هـ - 2007 م.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1417هـ / 1996م
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، اللمع في العربية، تحقيق سميح أبو مُغلي، دار مجدلاوي، عمان، د ط، 1988م
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ
- ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب، تحقيق يوسف بركات هبود، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1419هـ / 1998م
- ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ / 2001م
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، معجم الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة: الرابعة 1407 هـ / 1987 م
- الزمخشري، أبو القاسم محمود، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م
- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، شرح كتاب سيبويه، تحقيق أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2008 م
- سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ / 1988 م
- ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ / 1979م
- ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، د ط، 1399 هـ - 1979م
- -ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك، تحقيق هادي حسن حمودي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1417هـ / 1996م
- الجرجاني، عبد القاهر، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم المرجان، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، د ط، 1982م
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د ط، د ت.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1412 هـ
- الرضي الاستربادي، محمد بن الحسن، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تحقيق حسن الحفظي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، 1414هـ / 1993م